# كونفوشيوس والإبداع الفكري

د. درقام نادية(*)

## مقدمة

عندما نتأمل الحركة الفكرية للإنسان عبر العصور الممتدة نجدها ثرية ومتنوعة اعترى الكثير من مفاصلها الفعل الإبداعي، سواء نسب هذا الإبداع إلى فرد أو إلى أمة بعينها، ويظهر هذا الإبداع بصورة جلية مع بدايات النشاط العقلي الذي استطاع أن ينظر للكثير من القضايا التي تستفز العقل ويحتاجها الوجود البشري، وقد كان وراء ظهور الحضارات الشرقية القديمة نشاط عقلي مبدع لاسيما الحضارة الصينية القديمة، فكانت البدايات الأولى للتفلسف من هذه الحضارات، وقد اشتهر رواد الفكر الشرقي القديم بالكثير من النظريات لازلت فعاليتها الفكرية إلى أيامنا هذه. خاصة تلك الطروحات المنسوبة إلى كونفوشيوس أحد أشهر فلاسفة الصين القديمة الذي قدم مشروعا فكريا يتناول العديد من القضايا ويقدم الكثير من الحلول التي تميزت بخلودها، وهذا يعكس نوعا من الدينامكية التي تميز بها فكر كونفوشيوس. وأكد على القدرة الإبداعية للفكر الصيني عموما وللفكر الكونفوشي خصوصا. من هنا نتساءل عن سر هذه الديناميكية، هل يعود إلى طبيعة القضايا التي اهتم بها كونفوشيوس؟ أم إلى المنهج الذي اعتمده؟ هل الإبداع الفكري عند كونفوشيوس يعود إلى السبق الزمني بحكم ظهوره مع الحضارات الأولى التي عرفتها البشرية؟ أم أن الإبداع حالة طبيعية يصل إليها الإنسان في أي مرحلة زمنية متى ما استوفى شرائطه؟ ماذا يحقق الإبداع الفكري للبشرية؟

## كونفوشيوس والفلسفة الصينية

تعد الفلسفة الصينية حسب التصنيف المعتمد من طرف علماء تاريخ الفلسفة أنها إحدى

(*) أستاذة محاضرة بقسم الفلسفة كلية العلوم الاجتماعية جامعة محمد بن أحمد وهران ٢ الجزائر.

أنماط الفكر الشرقي القديم وهذا الصنف من العلماء يعترف بوجود حركة فكرية مميزة عرفتها تلك الحضارات التي سبقت الحضارة الإغريقية. وتأكيد لهذا الموقف وجود مدارس فكرية لازال تأثيرها إلى يومنا هذا، حيث تعتبر المدرسة الكونفوشية، إلى جانب المدرسة التاوية، الدعامة الثانية في الفلسفة الصينية القديمة، والتي مازالت تتمتع بقسط وافر من احترام الشعب الصيني، على الرغم من التغيرات الفلسفية العاصفة التي وقعت في تاريخ هذا الفكر. فقد ظل كونفوشيوس زعيم حكماء الصين، ورجل الأخلاق والمجتمع والسياسة.[١]

كشفت العديد من الدراسات التي اهتمت بالحضارة الصينية على وجود خصوصية فكرية لهذه الحضارة تمظهرت في كثرة مدارسها الفكرية وتنوع إنتاجها الفني، لكن على الرغم من أن هناك أدلة على وجود حضارة متقدمة في الصين، في كل العصور القديمة، فإن التاريخ الفعلي المسجل يبدأ بأسرة شانج Shang في القرن الرابع عشر قبل الميلاد. وتشير الأدلة المتاحة إلى أن هذه الحضارة كانت حضارة متقدمة، فالفن الذي يعود إلى هذه الفترة هو فن مصقول ومركب، حتى وفقا للمعايير الحديثة. وقد انتهت هذه الأسرة بالغزو على يد شعب تشو Chou الأكثر بدائية، والذي يفيد التراث أنه قد أسس أسرة تشو في عام ١١٢٢ق. م.[٢]

تنوعت المجالات الفكرية التي تناولتها الفلسفة الصينية، واختلفت مدارسها الفكرية حول طبيعة المعارف التي ركزت عليها مدرسة دون الأخرى، ولم يكن الهدف الرئيسي للفلسفة الصينية هو في المقام الأول فهم العالم، وإنما جعل الناس عظماء. وعلى الرغم من أن الفلسفات الصينية المختلفة يشكل هذا الهدف قاسما مشتركا بينها، فإنها تختلف إلى حد كبير، نتيجة الاستبصارات المختلفة عن مصدر العظمة الإنسانية. ففي التاوية (الطاوية) ينصب على اكتساب العظمة بالتوحد من النهج الداخلي للكون، ومن ناحية أخرى انصب التركيز في الكونفوشية على تطوير الإنسانية من خلال النزوع الإنساني للقلب والفضائل الاجتماعية، والكونفوشية الجديدة، التي استمدت إلهامها إلى حد ما، من البوذية الصينية بين هذين الاتجاهين.[٣] ولم يبق الاختلاف بين التاوية والكونفوشية على مستوى موضوع المعرفة

(١) محمد حسن، تيارات الفلسفة الشرقية، دار علاء الدين، دمشق، سوريا، (د. ط)، ٢٠٠٨، ص ٦٣.

(٢) كولر جون، الفكر الشرقي القديم، تر: كامل يوسف حسين، مراجعة: إمام عبد الفتاح إمام، عالم المعرفة، الكويت، (د. ط)، ١٩٩٥، ص، ص، ٣١٧، ٣١٨.

(٣) المرجع نفسه، ص، ص، ٣١١، ٣١٢.

والمنهج المتبع بل ظهرت الاختلاف جليا على مستوى النزعة المثالية والنزعة الواقعية، فلقد قدمت الفلسفة التاوية السابقة والمعاصرة لكونفوشيوس تصورات عدة في مجال الميتافيزيقا والسلب المطلق للشخصية الإنسانية. وأدت دورا هاما إلى جانب الوضع السياسي والاجتماعي في ذلك العصر، عصر كونفوشيوس(الدويلات التجارية) في خلق الشخصية المهزومة، والملتجئة إلى حماية خارجية، تستمد وجودها وأمنها من موقف ميتافيزيقي خارج نطاق الفعالية البشرية المنتجة لوجودها اجتماعيا ومعرفيا. جاءت فلسفة كونفوشيوس ردا على التاوية في بعض طروحاتها، ولاسيما الميتافيزيقيا التي لم يعمل فيها كونفوشيوس لكنه أبدا رأيه رافضا لها، وحولا النظر إلى نظرية فلسفية أخلاقية وسياسية تقدم توجها اجتماعيا معرفيا جديدا للخروج من الأزمة.(١)

يعود ظهور المدارس الفكرية في الصين لاسيما الكونفوشية والتاوية إلى رفض الكثير من الأفكار السائدة آنذاك، خصوصا تلك التي كانت تحط من قيمة الإنسان، حيث ترجع بدايات الفلسفة الصينية باعتبارها تمحيصا نقديا للطبيعة الإنسانية، وطريقة الحياة الصحيحة، إلى كونفوشيوس ولاوتسو. وعلى الرغم من هذا يعني أن الفكر الصيني السابق على حوالي منتصف القرن السادس قبل الميلاد هو فكر ما قبل الفكر الفلسفي، فإن ذلك لا يعني أن فلسفة كونفوشيوس ولاوتسو يمكن فهمها دون تمحيص لتراث الصين السابق على الفلسفة. و إنما الأمر على العكس من ذلك، وحيث إن الكونفوشية والتاوية هما استجابتان نقديتان حيال نظريات وممارسات سابقة من الضروري أن نضع صورة للصين في مرحلة ما قبل الفلسفة في أذهاننا، لكي نضع هاتين الفلسفتين في السياق المطلوب لفهمهما.(٢)

إن اهتمام لاو زو وكونفوشيوس خاصة، بتجديد الفكر الصيني القائم آنذاك. كان مدخله تقديم مشروع فكري مبدع قوامه تحرير إنسانية الإنسان من قبضة الفكر المتخلف، وقد مال هذا الهدف، الذي يتخلل كل شيء، والمتمثل في العظمة داخليا و إظهار هذه العظمة خارجيا إل جعل الفلسفة الصينية شاملة لكل جوانب النشاط الإنساني. والفلسفة ليست منفصلة عن الحياة، والممارسة لا يمكن أن تنفصل عن النظرية. وقد كانت هناك قلة قليلة للغاية من الفلاسفة المحترفين في الصين. وقد شغل كل فلاسفة الصين العظام، تقريبا، مناصب إدارية

(١) محمد حسن، تيارات الفلسفة الشرقية، ص٦٥.
(٢) كولر جون، الفكر الشرقي القديم، ص ٣١٧.

في الحكومة، أو كانوا من الفنانين، وقد اعتمد تقدير الفلاسفة فهي الصين، في التحليل النهائي، على طابعهم الأخلاقي. وليس من المتصور أن شخصا سيئا يمكن أن يكون فيلسوفا جيدا، أو أن فيلسوفا جيدا يمكن أن يكون شخصا سيئا. والاختبار الحقيقي للفلسفة هو قدرتها على تحويل دعاتها إلى أشخاص أعظم.(١)

شهدت الفلسفة الصينية مع المشروع الكونفوشي نقلة نوعية على مستوى الاهتمام بالإنسان وكرامته، ولما كانت عظمة الأشخاص هي مناط الاهتمام الرئيسي، فإن الاهتمامات بالناس تأتي أولا في الصين، فالعالم الإنساني له الصدارة. أما عالم الأشياء فيحتل مرتبة ثانوية، وهذه السمة تتجلى في الكونفوشية في التأكيد على النزعة الإنسانية الاجتماعية، وتبدو واضحة في التويا في الوحدة الصوفية الأنطولوجية بين النفس والكون.(٢)

لم تكن مهمة كونفوشيوس في طرح أفكاره الجديدة على المجتمع الصيني سهلة، بل سيضطر إلى الدفاع عن مشروعه الفكري لاسيما أمام باقي المدارس الفكرية، وإذا كانت الصين قد شهدت قيام مناقشات عنيفة بين المدارس المختلفة، لاسيما المدارس الأربعة الرئيسية وهي الكونفوشيوسية، والتاوية، والموتسية، والقانونية، وكانت الحرب سجالا بهدف السيطرة على العقل الصيني، إلا أن الغلبة في النهاية كانت للمدرسة الكونفوشيوسية ولفلسفتها التي استطاعت أن تهيمن على الفكر الصيني على مر العصور، كما كان لزعيمها كونفوشيوس وضع خاص متميز، فقد نظر إليه الصينيون نظرة المؤمنين إلى أنبيائهم.(٣) وذلك يعود إلى طبيعة النضال الذي خاضه كونفوشيوس على مستوى العقل والواقع، إذ أن فكر «لاوتزو» (LAOZI) وفكر «كونفوشيوس» (CONFUCIUS) أنبتا مدارس فكرية تقليدية تجددت بأثواب محدثة، وانتشرت شهرتها، ولو بشكل محدود، في العالم أجمع.(٤)

إن القيمة الإبداعية لفكر كونفوشيوس لازالت تثبت جدارتها إلى يومنا هذا، إذ أن مسألة

(١) المرجع نفسه، ص ٣١٣.
(٢) المرجع السابق، الصفحة نفسها.
(٣) صلاح بسيوني رسلان، كونفوشيوس رائد الفكر الإنساني، منتدى مكتبة الإسكندرية، الإسكندرية، مصر، (د. ط)، (د. ت)، ص ٦١.
(٤) عبد الحي عمر، الفلسفة والفكر السياسي في الصين القديمة، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ط١، ١٩٩٩، ص٤.

الاطلاع على الفكر والفلسفة الصينيين، تبدو اليوم أكثر أهمية على المستوى الفكري الفلسفي والسياسي، لما تكشفه من إبداعات إنسانية هامة تدل على كيفية معالجة الإنسان الصيني والمجتمعات الصينية للكثير من القضايا والمشاكل التي تعترض الإنسان الفرد كما المجتمعات البشرية، وتستوجب الإجابات عن الكثير من التساؤلات التي يطرحها العقل والفكر من خلال التجربة أو الممارسة.(١)

رغم الطابع العملي الذي تميز به فكر كونفوشيوس خاصة والفكر الصيني عامة مع اختلاف واضح مع ما سيأتي مع الفلسفة الإغريقية تميزت بالتجريد والتأمل أكثر من فكر الحضارات الشرقية القديمة، وعلى هذا الأساس، يمكن القول بأن الفكر الصيني لم يهتم كثيرا بالناحية التأملية المنتجة للفكر الفلسفي، بل اتجه ناحية الفكر العملي الذي أنتج الفكر الاجتماعي-السياسي الذي تميزت به الحضارة الصينية.(٢)

ازدهرت الممارسات الفكرية المبدعة مع كونفوشيوس، فلقد تم وضع دعائم فلسفة كونفوشيوس خلال عصر الفلسفة الذي استمر من القرن الثالث قبل الميلاد، ونعمت فيه الصين بفترة غير عادية من ازدهار العقل البشري.(٣) إذ نلمس الإبداع الفكري عند كونفوشيوس على عدة مستويات، فنجده ينتفض على ماهو سائد من أفكار وتزيد انتفاضته أكثر على السلوكات التي تنطلق من تلك الأفكار، كما يظهر إبداعه على مستوى المجالات التي يعلي من شأنها ويهتم بها نظريا و إجرائيا، فقد اعتنق كونفوشيوس المثل الأعلى للاستقرار والثبات: نظام اجتماعي منسجم يعرف فيه كل فرد مكانه. تصحيح الطقوس والشعائر على جانب كبير من الأهمية، ولابد أن يخضع كل جانب من جوانب الحياة لقواعد واضحة للسلوك. ولقد كانت الكونفوشية ديانة حقيقة «لهذا» العالم، فاعترض اتباعها على ديانة تشجع، فيما يبدو، على نبذ الروابط الدنيوية والتخلي عنها في سبيل البحث عن أهداف روحية غامضة.(٤)

يمكننا أن نلمس الإبداع الكونفوشي على مستوى نسقية الطرح الفكري التي ستظهر

(١) المرجع نفسه، ص ٥.
(٢) المرجع السابق، ص ٦.
(٣) صلاح بسيوني رسلان، كونفوشيوس رائد الفكر الإنساني، ص٦٠.
(٤) جين هوب بورن فإن لون، بوذا، تر: إمام عبد الفتاح إمام، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، مصر، (د. ط)، ٢٠٠١، ص٨١.

في مختلف المقاربات التي سيقدمها حول الأخلاق والسياسة، خاصة إذا تمحورت قضايا المدرسة الكونفوشية في أمرين اثنين هما: الأخلاق والسياسة. وفيما عدا ذلك، لم تتجاوز الآراء البسيطة التي لا تشكل نظرية فلسفية، ولاسيما في مجال التطبيق العملي، فقد كانت المدرسة الكونوشية تطرح تعاليما فلسفية تتمحور حول الأخلاق البشرية الفردية منها والاجتماعية، والنظرية السياسية للدولة مثلى، يحقق فيها المجتمع وجود عبر تشكيله الأخلاقي.[١]

## كونفوشيوس ورعاية الإنسان

استطاع كونفوشيوس أن يقدم نظرة إبداعية عندما انصب جهده على العناية بإنسانية الإنسان، فلقد كان كونفوشيوس أول فيلسوف صيني يطرح سؤالا عن طبيعة الإنسان (هيسنج)، وقد جاءت إجابته بسيطة وعميقة في نفس الوقت، فقد قال: إن «الناس سواسية خيرين بطبيعتهم ولكنهم كلما شبوا اختلف الواحد منهم عن الآخر تدريجيا وفق ما يكتسبون من عادات، و إن الطبيعة البشرية مستقيمة، و إذا ما افتقد الإنسان هذه السعادة»[٢].

يشير كونفوشيوس إلى أن السعادة ليست مسألة بعيدة عنا لنبحث عنها بل هي كامنة فينا، إذ يكفي أن يستقيم الإنسان في تحقيق سعادته، لذلك فالسعادة عند كونفوشيوس مقرونة بالاستقامة، وهو يحقق السبق و يكون المبدع الأول في تقديم تصور عملي لمفهوم السعادة، ولاشك أن هذا التصور الكونفوشيوسي للطبيعة الإنسانية الخيرة وللتوحيد بين حياة الاستقامة والسعادة شديدة الشبه بتعاليم سقراط وأفلاطون الأخلاقية.[٣]

استطاع كونفوشيوس أن يقدم خطة عملية لتفعيل السعادة في حياة البشر على المستوى الفردي والجماعي معا، بالنسبة لكونفوشيوس، كان الشيء الأكثر أساسية هو رعاية إنسانية المرء، وتنظيم كل الأنشطة بحسب هذه الإنسانية المتطورة، و يقول أحد النصوص الأساسية في الكونفوشية: « كان القدماء الذين يرغبون في إبراز شخصيتهم النقية للعالم، يعمدون أولا إلى نشر النظام في دولهم، والذين رغبوا في نشر النظام في دولهم كانوا ينظمون عائلاتهم، كانوا

(١) محمد حسن، تيارات الفلسفة الشرقية، ص ٦٥.

(٢) النشار مصطفى، المصادر الشرقية للفلسفة اليونانية، دار قباء للطباعة والنشر، القاهرة، مصر، ط ١، ١٩٩٧، ص٨٣.

(٣) المرجع نفسه، ص ٨٣.

يرعون حياتهم الخاصة أولا».[١] وهو بهذا يؤكد على وجود أسس تتكامل فيما بينها، فقد كان كونفوشيوس مقتنعا بأن العناية بالإنسانية من خلال احترام آداب المجتمع، والولاء البنوي، والاستقامة، سوف تفضي بالشخص إلى تجسيد شخصي للفضيلة، الأمر الذي سيسفر عن مجتمع منظم خير تنظيم، وليس هناك تمييز حاد هنا بين الأخلاق والسياسة، فإذا كان الناس صادقين مع أنفسهم، و يتسمون بالإخلاص، فإنهم سيجسدون الفضائل المختلفة، و إذا ما قام كل شخص بهذا، فمن المؤكد أنه ستكون هناك حكومة جيدة، ونظام اجتماعي تعمه السعادة.[٢]

## جين والطبيعة الإنسانية

ارتكز كوفوشيوس في تبنيه للسعادة الإنسانية على إمكانات الخير الموجودة في كل ذات والتي يعبر عليها كونفوشيوس بما اصطلح عليه بمفهوم «جين» الذي يقول عنه ما يلي: «إن ما يجعل البشر إنسانيين على نحو فريد هو «جين». وهذا هو السر في أن الطريق الكونفوشي هو جوهره طريق «جين» أو طيبة القلب الإنسانية. ولقد ترجمت كلمة «جين» بطرق شتى، ومن هذه الترجمات: الفضيلة، الإنسانية، الإحسان، الرجولة الحقة، الطابع الأخلاقي، الحب، الخير الإنساني، وطيبة القلب الإنسانية. والتعبير الإنجليزي Human Heartedness يوحي بأن «جين» هي ما يجعلنا إنسانيين، وأنها أمر متعلق بالشعور وكذلك بالتفكير، وأنها أساس العلاقات الإنسانية كافة، وتكشف ترجمة كلمة «جين» بطيبة القلب الإنسانية كذلك عن التشديد الصيني على القلب، وليس على العقل، باعتباره السمة المحددة للطبيعة الإنسانية.»[٣]

يعد كونفوشيوس من المفكرين الأوائل الذين تبنوا فلسفة الحب، وكان مبدعا في طرحه هذا الذي سبق به الكثير من الفلاسفة الذين كانت لهم نظريات في الحب لاسيما الفيلسوف اليوناني أفلاطون. وهذا ما عبر عنه عندما سئل- كونفوشيوس- عما هي «جين» رد قائلا: «إنها حب البشر» موحيا بأن قدرتنا على الحب تشكل جوهر إنسانتينا. غير قدرتنا على حب الآخرين لها تبعات أخلاقية مهمة، الأمر الذي يقتضي التفكير في ال «جين» من منظور أخلاقي.[٤]

(١) كولر جون، الفكر الشرقي القديم، ص ٣١٢.

(٢) المرزوقي جمال، الفكر الشرقي القديم وبدايات التأمل الفلسفي، دار الآفاق العربية، القاهرة، مصر، ط١، ٢٠٠١، ص٢٥٢.

(٣) كولر جون، الفكر الشرقي القديم، ص ٣٣٥.

(٤) المرزوقي جمال، الفكر الشرقي القديم وبدايات التأمل الفلسفي، ص ٢٤٩.

يظهـر الترابط جليا بين فلسفة الحب وفلسفة كونفوشـيوس الأخلاقيـة، إذ أن قدرتنا على حـب الآخرين لها تبعات أخلاقية مهمة، الأمر الذي يقتضي التفكير في الـ «جين» من منظور أخلاقـي. وهكـذا فإن كونفوشـيوس يقول: «يرغـب كل إنسـان في الثروة والـشرف، إذا تم تحقيقهـما عن طريق مخالف لمبادئ الأخلاق، فإنه لا ينبغـي الإبقاء عليهما. ويكره كل إنسان الفقـر وتواضع المرتبة، ولكن إذا لم يكن بالإمكان تجنبهما إلا بمخالفة المبادئ الأخلاقية، فإنه لا ينبغي تجنبهما، وإذا ما نأى شخص رفيع المكانة عن الإنسانية (الجين) فكيف يمكن أن يحقق تلـك المكانـة؟ ذلك أن الإنسان الرفيع المكانة لا يمكنه قط التخلي عن الإنسانية (الجين)، حتى ولـو من أجـل وجبة طعام واحـدة، فهو في لحظات التعجـل وهو مسرع يعمـل وفقا لها، وهو في أوقات الشدة والاضطراب يعمل وفقا لها».[١]

يعتـبر «الجين» ضروري لتحيق السعـادة في حياة البشر، فهو بالغ الأهمية بحيث إن الحياة من دونه ليست جديرة بأن يحياها الإنسان. ومن يتسم بالحكمة، ويعد مثقفا حقيقيا، لا يقترف ما من شـأنه الإضرار بـ «جين». ويقول كونفوشـيوس: «إن المثقف الحـازم، ورجل الإنسانية (الجـين) لا يسعى قط للحيـاة على حسـاب الإضرار بالإنسانية (الجين). وهـو يؤثر التضحية بحياتـه لكي يحقق الإنسانيـة (الجين)».[٢] وعلى الرغـم من أن «الجين» هي أسـاس الإنسانية، وبالتالي الدليل المطلق للفعل الإنساني، فقد أدرك كونفوشيوس أن الحاجة ماسة في الحياة اليومية إلى أدلة مبشرة أكثر وأشد تعينا. وقد وجد هذه الأدلة المتعينة في قواعد اللياقة أو آداب المجتمع (لي Li) التـي تحكـم العـادات والمراسـم والعلاقات التي تـم الاعتراف بها من خلال ممارسـة النـاس عبر العصور. ويعكس أفضل هذه الممارسـات التجسيد المتعين لـ «الجين» وتجسيدها في الماضي، وبالتالي فهي تشكل فهي تشكل دليلا لتحقيق «الجين» في الحاضر، وهذا هو السبب في أنه عندما سأل ين يوان عن «الجين» قال كونفوشيوس: «أن يسيطر المرء على نفسه وأن يعود إلى آداب المجتمع (لي) تلك هي الإنسانية (جين)».[٣]

لم يلغ كونفوشـيوس العادات الاجتماعية بشـكل تعسفي بل عمل على تنظيمها من خلال إحياء الآداب الاجتماعية عن طريق «لي»، وتتجلى الأهمية التي يعلقها كونفوشيوس على «لي»

(١) كولر جون، الفكر الشرقي القديم، ص ٣٣٦.
(٢) المرجع السابق، ص ٣٣٦.
(٣) المرجع نفسه، ص ٣٣٧.

كذلك من خلال ملاحظته: ««لي» هي المبدأ الذي جسد من خلاله الملوك القدامى شرائع السماء، ونظموا التعبير عن الطبيعة الإنسانية، ومن هنا فإن من يحرز لي يعيش ومن يفقدها يمت.»[١]

## كونفوشيوس والأخلاق

يعد اهتمام الفكر الشرقي القديم ولاسيما الصيني منه بفلسفة الأخلاق سمة بارزة لهذا الفكر لاسيما وأنه يركز على البعد الإجرائي للحياة، وكان كونفوشيوس أشهر فلاسفة الصين من ركز على تهذيب النفوس وتطوير السلوك البشري ليرتقي إلى حد الإنسانية، في مجال الأخلاق، وهو الهم الأكبر والأساس في فلسفته، انقسمت آراؤه بين: الأخلاق الفردية والأخلاق الاجتماعية. الأولى هي المؤسس ونقطة الانطلاق نحو أخلاق اجتماعية مثلى لنظام سياسي أمثل. لقد انصبت جهود كونفوشيوس في الأخلاق على الإيمان بفوارق فطرية في الجبلة البشرية. فالناس يولدون وهم يحملون سمات التمايز الفيزيولوجي والخلقي. ولا يحصل التماثل والتكافؤ لديه إلا بالتربية التي تشكل الشخصية الإنسانية. وكان يرى أن الإيمان بالخير كمثال أعلى. والعمل على تحقيقه في الحياة، هو المثال لتلاقي البشر وتآلفهم. فالخير هو منطلق كونفوشيوس، ومن بعده تلامذته، و إن اختلفت الرؤية. ولفعل ذلك ينطلق كونفوشيوس للمرتسم الاجتماعي، فهو يدعو الفرد لمحبة والديه واحترامهم، وأن يعطف على أشقائه، وأن يكون كريما متفاهما مع كل إنسان، ومقابلة الخطيئة بالفضيلة، واحترام الأسلاف من الأمة. ومن تعاليمه المشهورة: «لا تفعل للآخرين ما لا تحبه لنفسك.[٢]

لقد سبق كونفوشيوس الكثير من الديانات والفلسفات في الدعوة إلى محبة الآخرين والتعامل على أساس أن تحب لأخيك ما تحبه لغيرك. من هذه النقطة دفع كونفوشيوس نفسه لرسم نظرية اجتماعية سياسية مثلى في الأخلاق. يقول كونفوشيوس في كتاب (الداشوه= التعليم الأكبر): «إن القدامى الذين أرادوا أن ينشروا أرقى الفضائل في أنحاء الإمبراطورية قد بدؤوا بتنظيم ولاياتهم أحسن تنظيم. ولما أرادوا أن يحسنوا تنظيم ولاياتهم بدؤوا بتنظيم أسرهم. ولما بدؤوا تنظيم أسرهم، بدأوا بتهذيب نفوسهم. فلما أرادوا أن يهذبوا أنفسهم، بدؤوا بتطهير

(١) المرجع نفسه، ص ٣٣٨.

(٢) محمد حسن، تيارات الفلسفة الشرقية، ص، ص، ٦٦، ٦٧.

قلوبهم. ولما أرادوا تطهير قلوبهم، عملوا أولا على أن يكونوا مخلصين في تفكيرهم. ولما أرادوا أن يكونوا مخلصين في تفكيرهم، بدأوا بتوسيع دائرة معارفهم إلى أبعد حد مستطاع. وهذا التوسع في المعارف لا يكون إلا بالبحث عن حقائق الأشياء.. فلما بحثوا عن حقائق الأشياء أصبح علمهم كاملا. ولما كان علمهم كاملا، خلصت أفكارهم، فلما خلصت أفكارهم تطهرت قلوبهم. ولما تطهرت قلوبهم تهذبت نفوسهم ولما تهذبت نفوسهم، انتظمت شؤون أسرهم. ولما انتظمت شؤون أسرهم، صلح حكم ولايتهم. ولما صلح حكم ولايتهم، أصبحت الإمبراطورية كلها هادئة سعيدة». هذه هي نظرية كونفوشيوس في الحياة المثلى، والمخرج من مأزق الحياة الإنسانية البائسة في نظره.[١]

يكمن الإبداع الذي ظهر في الطروحات الأخلاقية لدى كونفوشيوس من خلال قدرته الاستيعابية للطرح الأخلاقي الصيني القديم في ما رآه يتناسب مع عصره، فأنشأ كونفوشيوس نظاما أخلاقيا جديدا، معتمدا في ذلك على الكتب الصينية القديمة، خاصة كتاب «الطقوس» وكتاب «الأغاني» وكتاب «التاريخ»، مع تأويل لغتها العتيقة تأويلا معاصرا. وقد ظل هذا النظام موضع احترام الصينيين وإجلالهم في جميع أرجاء البلاد، وبقي يؤثر فيهم حتى وقتنا المعاصر.[٢]

هناك ترابط شديد بين ما هو أرضي وما هو سماوي، إذ تتميز الأخلاق عند كونفوشيوس بالمطلقية والنسبية، بالأصالة والتطور. فإذا كان الله هو مصدر القانون الأخلاقي، فإن جوهره الصحيح وكيانه الحقيقي يوجدان في كل منا بشكل كامل، ولا يمكن لهذا القانون الأخلاقي أن ينفصل عنا بأي حال من الأحوال.[٣] كما لا يمكن فصل بين الأخلاق عند كونفوشيوس وبين النظرة الكلية للإنسان، ومما يؤكد عمق البعد الإنساني في الأخلاق عند كونفوشيوس، واعتبار طبيعة الإنسان وإمكانيات هذه الطبيعة معايير لهذه الأخلاق قوله في هذا الشأن: «إن الطريق الصحيح أو قاعدة السلوك السليم التي على الأفراد اتباعها ليست ببعيدة عنهم، لأن الأفراد إذا استنوا قاعدة للسلوك بعيدة عنهم، فمعنى ذلك أنها لا تتفق وطبيعتهم الإنسانية، وكل قاعدة

(١) المرجع نفسه، ص٦٧.
(٢) صلاح بسيوني رسلان، كونفوشيوس رائد الفكر الإنساني، ص ١١٢.
(٣) المرجع السابق، ص ١١٣.

للسلوك الأخلاقي تتنافى مع الطبيعة الإنسانية يجب استبعادها وعدم الأخذ بها»[١]. إن وحدة الطبيعة الإنسانية بين جميع البشر هي التي يمكنها أن توحد الأخلاق بينهم، فالإنسان، إذن هو مصدر القيم، ومقياس الأخلاق الفاضلة، والذي يجعل الناس مقاييس ومعايير بعضهم لبعض هو أن الطبيعة الإنسانية، وما تتميز به من عواطف وأفكار ومشاعر وانفعالات، واحدة في كل فرد من أفراد النوع الإنساني، فيما يرى ذلك كونفوشيوس.[٢]

يستهدف كونفوشيوس من خلال مشروعه الأخلاقي الوصول بالإنسان إلى السعادة و إشاعة الخير، ولذلك كان التركيز على الإجابة على السؤال الرئيسي « كيف يمكن تحقيق الخير والسعادة؟» بالإشارة إلى مبادئ الفعل التي يتم العثور عليها في الإنسانية ذاتها، ومصدر هذه المبادئ هو ما يجعل من البشر مخلوقات إنسانية.[٣] لذلك وما دامت السعادة هي الخير وأن الإنسان بطبيعته كائن اجتماعي، لذا فقد كانت على بعد مرحلة قصيرة فقط للوصول إلى مبدأ كونفوشيوس في تبادل الأخذ والعطاء... وواضح أنه لو أن كل فرد عمل من أجل سعادة الجميع لكان علينا أن نتخذ موقفا يكون أكثر احتمالا لجلب سعادة عامة عن أي أمر سواها.[٤]

لا يمكن إشاعة السعادة في المجتمع إلا بتفعيل الأخذ والعطاء الذي يؤسس للكثير من الأخلاقيات، فأول المبادئ الأخلاقية وأبسطها_ بنظر كونفوشيوس- هو تبادل «الأخذ والعطاء» أي «ألا يفعل المرء بالغير مالا يريد أن يفعلوه به». هذا التعريف السلبي لمبدأ الأخذ والعطاء بين الناس يقدمه على نحو إيجابي في قوله: «الرجل الفاضل حقا هو من يرغب في تثبيت أقدام الناس كما يرغب في تثبيت قدميه، ويريد لنفسه النجاح ويكافح ليساعد الآخرين لينجحوا، ويجد في أمنيات قلبه المبدأ لسلوكه تجاه الغير في منهج الفضيلة الحقة»[٥].

لم يلغ كونفوشيوس الطقوس في المجتمع الصيني بل النزوع الإبداعي في الفكر الكونفوشيوس جعله يجدد التعامل معها، وهنا تتجلى روعة المذهب الأخلاقي الكونج فوتسي

(١) المرجع نفسه، ص ١١٥.
(٢) المرجع نفسه، الصفحة نفسها.
(٣) المرزوقي جمال، الفكر الشرقي القديم وبدايات التأمل الفلسفي، ص ٢٤٨.
(٤) كريل ه. ج، الفكر الصيني من كونفوشيوس إلى ماوتسي تونج، تر: عبد الحميد سليم، الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر، (د. ط)، ١٩٧١، ص ٦٢.
(٥) العريبي محمد، موسوعة الأديان السماوية والوضعية-الديانات الوضعية الحية في الشرقين الأدنى والأقصى، دار الفكر اللبناني، بيروت، لبنان، ط ١، ١٩٩٥، ص ٢٣٥.

أو الكونفوشيوسي بإعطائه الطقوس معنى أخلاقيا، مستبدلا النظر إلى الطقوس من شيء له فائدته «السحرية» إلى شيء هو الدليل على الامتثال الداخلي للمثل الأخلاقية في الداخل، فإن كلمة «لي» التي تعرف بأدب اللياقة تلعب دورا مهما في التعاليم الكونفوشية لأنها تعني في حقيقتها لا الاستقامة الظاهرية للسلوك و إنما امتثال المرء للقانون الحاكم مجرى الطبيعة كله.(١)

إن الحركة التجديدية التي تبناها كونفوشيوس جعله يحقق ثورة في المجتمع الصيني، وهكذا نرى أن الطقوس القديمة أصبحت في يد « كونج فوتسو » أساسا لحياة أخلاقية هي تلك التي عرفتها الصين بالفلسفة الرابطة بين الطبيعة والإنسان أو بالأحرى الرابطة الكون والكائن برباط ورابطة الانسجام.(٢)

استطاع كونفوشيوس أن يؤسس لنظام أخلاقي يرقى إلى أن يكون ديانة، ولم يشأ كونفوشيوس أن يكون زعيما لمذهب ديني. إلا أن تعاليمه سوف يكون لها أثرها على العقائد الصينية، لأن الأسس التي ارتكزت عليها تعاليمه الأخلاقية والسياسية هي دينية. وتناقل الصينيون هذه التعاليم. وبعد قرنين من وفاة كونفوشيوس قرر حاكم مملكة «هان» (Han) أن يتولى الكونفوشيوسيون مقاليد السلطة وأضحت الكونفوشيوسة دين الدولة.(٣)

رغم إنكار الكثير من الفلاسفة الغربيين للفكر الشرقي القديم، إلا أن هذا الفكر أثبت جدارته إلى غاية عصرنا الحالي وهذا دليل قوة هذا الفكر وركائزه، وتعد «حكمة» كونفوشيوس، على سبيل المثال، حكمة مجددة لنشاط العقلية الأوربية ومؤثرة فيها إلى حد كبير. وعندما صارت هذه الحكمة سهلة المنال لأول مرة بدا أنها تفتح عالما جديدا من التوازن والنضج والإدراك. لقد كانت نوعا من الرسالة التي ينتظرها الأوربيون، بعد أن أجهدهم التعصب الديني كما أجهدتهم الحروب الناجمة عنه. أما عن أن ذلك ينطبق بصورة خاصة على الفرنسيين، فلقد كان أمرا طبيعيا: لأن الثقافة الإنسانية المتوازنة كانت ولا تزال المثل الأعلى للحياة الفرنسية.(٤)

(١) السقاف أبكار، نحو آفاق أوسع- المراحل التطورية للإنسان- الدين في الهند والصين و إيران، مؤسسة الانتشار العربي، بيروت، لبنان، ط١، ٢٠٠٤، ص١٤٣.

(٢) المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

(٣) العريبي محمد، موسوعة الأديان السماوية والوضعية-الديانات الوضعية الحية في الشرقين الأدنى والأقصى، ص ٢٣٥.

(٤) تومليـن أ. و. ف، فلاسفة الشرق، تر: عبد الحميد سليم، دار المعارف، القاهرة، مصر، ط٢، (د. ت)، ص٢٧٨.

## الرجل الأعلى

يمكن لأي إنسان أن يطور إمكاناته الإنسانية ليصل إلى سمو أخلاقي يتعالى به عن التردي الـذي وصل إليه الإنسـان الصيني آنـذاك، ولما كان الفرد هـو المنطلق في التشـكيل الأخلاقي والاجتماعي والسياسي لدى كونفوشـيوس، فما هي خاصية هذا الفرد؟ وما هي ماهية تكوينه الفردي والاجتماعي والسياسي؟ يجيب كونفوشيوس أنه «الرجل الأعلى»، أي ذاك الذي بالقول والفعل يسمو على الجميع. ويمكن للجميع أن يسمو يقدر سموه.[١]

يلتزم الإنسان الأعلى بشرائط حددها كونفشـيوس من خلال سؤال موجه إليه من تلميذه (تـزه- لـو) ما الـذي يكون الأعـلى؟ إجابه كونفوشـيوس: «أن يثقـف نفسه بعنايـة ممزوجة بالاحـترام. والرجل المثالي تجتمع فيه الفلسفة والقداسـة، فيتكـون منهما الحكيم... والإنسان الكامل الأسمى يتكون من فضائل ثلاث، هي الذكاء والشجاعة وحب الخير... الرجل الأعلى يخـشى ألا يصل إلى الحقيقة، وهو لا يخشى أن يصيبه الفقر... وهو واسـع الفكر، غير متشـيع إلى فئـة... وهو يحرص على ألا يكون فيما يقوله شيء غير صحيح. وهو ذو خلق وذكاء... فإذا غلبت فيه الصفات الجسمية على ثقافته وتهذيبه كان صلفا. و إذا غلبت فيه الثقافة والتهذيب تمثلت فيه أخلاق الكتبة. أما إذا تساوت فيه صفات الجسم والثقافة والتهذيب وامتزجت هذه بتلك، كان لنا منه الرجل الكامل الفضيلة... فالذكاء هو الذهن الذي يضع قدميه على الأرض... وليـس الإخلاص الكامل هو ما يميز الرجل الأعلى... إنه يعمل قبل أن يتكلم، ثم يتكلم بعدئذ وفق ما عمل... إن الذي يبحث عنه الرجل الأعلى هو ما في نفسه، أما الرجل المنحط فسيبحث عـما في غـيره... والرجل الأعلى يحزنه نقص كفايته، ولا يحزنـه... ألا يعرفه الناس... والقاعدة الأسـاس في المعاملة أن تقوم على العطف الفياض على الناس جميعا.»[٢] و يتحلى الرجل المتعالي بالعاطفـة الفياضـة على النـاس بحيث «لا يغضبه أن يسمـو غيره من الناس، فـإذا رأى أفاضل الناس فكر في أن يكون مثلهم، و إذا رأى سفلة الناس عاد إلى نفسه يتقصى حقيقة أمره». لأنه قلـما توجد أخطاء لا نشـترك فيها مع الآخرين. والإنسان القدوة مجامل بشـوش لجميع الناس، ولا يحقر من هم أدنى منه، ولا يسعى لكسب رضى من هم أعلى منه، وهو جاد في سلوكه وتصرفاته

(١) محمد حسن، تيارات الفلسفة الشرقية، ص ٦٧.
(٢)المرجع السابق، ص٦٨.

لأن النـاس لا يحترمـون من لا يلتزم الوقار في تصرفاته معهـم، و يصدر في أعماله عن قلبه، غير متعجل بلسانه ولا موقع بالإجابات البارعة، و يصون نفسه عن التبذل حتى مع ابنه.[١]

يتبنى الرجل الأعلى مشروع إنقاذ الناس لدرجة سمو بهم إلى مرتبته، «فالرجل الفاضل حقا هو من يرغب في تثبيت أقدام الناس كما يرغب في تثبيت قدميه، يريد لنفسه النجاح و يكافح ليساعـد الآخرين لينجحـوا و يجد في أمنيات قلبه المبدأ لسلوكه تجاه الغير في منهج من الفضيلة الحقة.»[٢]

طـرح كونفوشـيوس فلسفـة أخلاقية ملزمـة أساسـها الطبيعـة الإنسانيـة. إن «طريق الواجب»، فيما يرى ذلك كونفيوشـيوس، يلزم الإنسان الأسـمى أن يتصرف لكي يجعل سلوكه في كل الأجيال قانونيا عالميا. ونفس هذا المعنى سـوف يتردد، بعد ذلك في العصر الحديث، على لسـان الفيلسـوف الألماني « كانط» حيث يقول: «إننا يجـب أن «نعمل حتى يصير المثل الأعلى لسلوكنا قانونا عالميا» أو قانونا عاما للطبيعة.[٣]

## الفلسفة السياسية

ارتبطـت طروحـات كونفوشـيوس ارتبطـا عضو يا فالإنسـاني ارتبـط بالأخلاقي تمظهر في السيـاسي، ولم يصلنا أي بيان جامع عن فلسفة كونفوشـيوس السياسـية، ولكن من الممكن إعادة بناء معالمها الرئيسية. وواضح أنه آمن بأن الحكومة يجب أن يكون هدفها رفاهية الناس أجمعـين وسـعادتهم، وكان يعتقد أن هـذا لا يمكن أن يتحقق إلا إذا تولى شـؤون الحكم أعظم الرجـال كفاية في البلاد. ومثل هذه الكفاية لا علاقـة لها بالمولد أو الثروة أو المكانة و إنما هي خاصة بالخلق والمعرفة، وهما ثمرة التربية الحقة.[٤]

يرتبـط النظام السياسي بالنظام التربوي، ففي مجال السياسـة يؤكد كونفوشـيوس العلاقة التراتبية انطلاقا من الفرد إلى الأسرة والمجتمع فالدولة. ونقطة الانطلاق هو الفرد. والأسـاس

(١) العريبي محمد، موسوعة الأديان السماوية والوضعية-الديانات الوضعية الحية في الشرقين الأدنى والأقصى، ص، ص، ٢٣٧، ٢٣٨.

(٢) كريل ه. ج، الفكر الصيني من كونفوشيوس إلى ماوتسي تونج، ص، ص، ٦٢، ٦٣.

(٣) صلاح بسيوني رسلان، كونفوشيوس رائد الفكر الإنساني، ص، ص، ٨٣، ٨٤.

(٤) كريل ه. ج، الفكر الصيني من كونفوشيوس إلى ماوتسي تونج، ص٦٤.

القانون الأخلاقي. يقول كونفوشيوس: «في وسع الابن وهو في خدمة أبويه أن يجادلهما بلطف، فإذا رأى أنهما لا يميلان إلى اتباع نصيحته زاد احترامه لهما، من غير أن يتخلى عن قصده. فإذا أمر الوالد ابنه أمرا خطأ، وجب عليه أن يقاومه. وعلى الوزير أن يقاوم أمر سيده الأعلى في مثل هذه الحال» [١]

تعتبر حركة الفرد أساسية في دفاع عن حقوقه في حالة فساد نظام الحكم، فلقد دفع كونفوشيوس الفرد للنهوض والثورة ضد الأسرة والمجتمع والدولة في حال وقوع الظلم. وكان ذلك بشير نذير للتخلص من المعتقدات الاجتماعية السائدة في ذلك الوقت تحت نظم المشاعية العبودية، وهي مرحلة كانت تشهد تحولا اجتماعيا نحو نظم إقطاعية أكثر انفتاحا عن سابقتها، ولكنها أكثر مركزية واستبدادية في حكمها السياسي.[٢] لذلك حدد كونفوشيوس شروط الحكم وذلك عندما سأله (تزه- كونج) عن الحكم، فقال له المعلم: «لابد للحكومة من أن تحقق ثلاثة أمور: أن يكون لدى الناس كفايتهم من الطعام، وكفايتهم من العتاد الحربي، والثقة بحكامهم»[٣].

كما أن مشروع كونفوشيوس الأخلاقي ينسحب على جميع الأطراف حكاما ومحكومين، ولقيادة المجتمع، يرى كونفوشيوس أن اعتماد مبدأ الأخلاق الذي أقره في الفرد والمجتمع، هو الأساس الصالح لقيادة المجتمع. وهو مبدأ الإخلاص «لذلك كانت أداة الحكم الأولى، القدوة الصالحة». فإذا فسد الحكام فسد الشعب. فأخلاق الحكام هي أخلاق الشعب».[٤] فالأخلاق شرط أساسي لقيام الحكم وتخلي عنها يؤدي إلى الفوضى في المجتمع، ولقد كان من الواضح بالنسبة لكونفوشيوس الذي ولد في عام ٥٥١ق.م. أن مشكلات الشغب تنبع من السلطة الحاكمة، التي تمارس بغير مبدأ أخلاقي، ولمجرد تحقيق مصلحة الحاكم، ورفاهيته فحسب، فلا عجب إذن أن نجده يدعو إلى الإصلاحات الاجتماعية، التي من شأنها أن تسمح بأن تدار الحكومة لمصلحة الناس جميعا، وقد شدد على أن ذلك يمكن القيام به، إذا كان أعضاء الحكومة ممن يتميزون بأقصى قدر من الاستقامة الشخصية، ويتفهمون احتياجات الناس، ويهتمون

(١) محمد حسن، تيارات الفلسفة الشرقية، ص٦٨.
(٢) المرجع نفسه، ص، ص، ٦٨، ٦٩.
(٣) المرجع نفسه، ص٦٩.
(٤) المرجع السابق، الصفحة نفسها.

بمصالحهم وسعادتهم قدر اهتمامهم بأنفسهم.[١] يشترط كونفوشيوس لصلاح الحكومة المحافظة على سلم القيم، فعندما سأل «الدوق تشي» كونفوشيوس عن ماهية الحكومة الصالحة، فأجاب: «توجد الحكومة الصالحة حيث يكون الأمير أميرا، والوزير وزيرا، والأب أبا، والابن إبنا». وكان لهذا التعريف وقعه الحسن في نفس «الدوق تشي».[٢] أما عن كيفية تحقيق الاحترام بين الحاكم والمحكومين، فقد أجاب حينما سأل أحد الحكام كونفوشيوس كيف يستطيع الحاكم أن يحمل الناس على احترام حكامهم وأن يلزمهم بسلوك طريق الفضيلة؟ فأجابه «فليرأسهم في وقاره يحترموه، وليكن عطوفا عليهم رحيما بهم يخلصوا له، وليقدم الصالحين و يعلم العاجزين.»[٣] أما عن علاقة الحاكم بالوزير فقد سأله أحد طلابه عن طبيعة العلاقة بين الحاكم والوزير، أجاب: «يجب ألا يخدعه، ولكن إذا لزم الأمر، يجب أن يكون صريحا معه». ومما قال لحاكم مملكة «لو» ذات مرة: «إذا كانت سياسة الحاكم طالحة ومع ذلك لم يعارضه أحد من وزرائه أو مستشاريه، فإن التراخي، من قبل المحيطين بالحاكم، كفيل بالقضاء على الدولة.»[٤]

قد أعطى كونفوشيوس قيمة كبيرة للاهتمام بالوضع الداخلي للدولة بدل من الاهتمام بالعلاقات الخارجية، فأول واجبات الحكومة -بنظر كونفوشيوس- لتطهير الدولة والارتفاع بالشعب إلى مستوى عال، أن تقلل من علاقاتها الخارجية، والعمل على الاكتفاء بغلاتها وعدم الاتكال على غلات غيرها. لأن الالتفات على غلات الممالك الأخرى قد يدفع إلى شن حروب عليها. و ينصح كونفوشيوس بالتقليل من ترف بطانة الحاكم أو الملك وتوزيع الثروة قدر الإمكان على الشعب لأن تمركز الثروة يؤدي إلى تشتيت الشعب وتوزيعها هو السبيل إلى جمع شتاته.[٥]

يرفض كوفونشيوس تربية الشعب بسياسة العقوبات فهو ينصح الحكام بالتقليل

(١) كولر جون، الفكر الشرقي القديم، ص ٣١٨.
(٢) العريبي محمد، موسوعة الأديان السماوية والوضعية-الديانات الوضعية الحية في الشرقين الأدنى والأقصى، ص ٢٣٩.
(٣) المرجع نفسه، الصفحة نفسها.
(٤) المرجع نفسه، ص ٢٤٠.
(٥) المرجع السابق، الصفحة نفسها.

مـن العقوبـات والإكثار من التعليـم، «لأن التعليـم إذا انتشر انعدمت الفـروق الطبقية.»[١] إذ لو حاول فرد أن يرشد الناس عن طريق سن القوانين، ويحافظ على النظام عن طريق فرض العقوبـات، فسيسعى الناس لتجنب العقوبات فحسـب دون أن يكون عندهم إدراك للالتزام الأخلاقي، ولكن لو أن فردا قادهم عن طريق الفضيلة (سواء عن طريق الإدراك أو عن طريق القدرة) واعتمد على الـ (لي) في الحفاظ على النظام، لأحسن الناس إذن بالتزامهم الأخلاقي بأن يقوموا ما بأنفسهم.»[٢]

نتيجة لهذا الطرح الذي يرفض العقوبات والذي لا يعطي للقوانين أهمية من حيث تنظيم المجتمـع للوصـول إلى السعادة تصـدت طوائف كثيرة لتعاليـم كونفوشـيوس، وكانت طائفة «القانونيين» مـن أبرز الطوائف التي تحاملت على تعاليم المعلـم ووصفتها بأنها مثالية. وقالت بـأن الحكم يجب أن يستند إلى القوانين لا إلى الحكـام، و إن الناس يجب أن يرغموا على إطاعة القوانين حتى تصبح إطاعتها طبيعة ثانية للمجتمع فيطيعوها راضين مرتاحين.[٣]

إن فلسفة كونفوشيوس السياسـية اقترنت بالممارسة السياسية، فقد قبل كونفوشيوس في شـبابه منصبـا حكوميا في دولة لو الـذي ولد بها، وهنالك لم يلاحظ فقط سـوء الإدارة الحكوميـة وعدم كفايتها في مملكة لو، ولكنه اسـتطاع كذلـك، وبطريقة محدودة، القيام بشيء حيال هذه الإدارة بالاضطلاع بواجباته على نحو ملائم. وربما كانت خبرته في مجال السياسة العملية عنصرا من عناصر اتخاذه لقرار الاتجاه نحو الاهتمام بمشكلات المجتمع.[٤] كما زادت خبرة كونفوشـيوس السياسـية من خلال ارتقاءه عـدة مناصب حكومية مهمة منهـا تعينه قاضيا في مدينة جونج - دو، وفي فـترة توليه منصب القضاء عمت الأمانة حتى إنه لو سـقط شيء في الطريق بقي مكانه أم عاد إلى صاحبه. ثم تولى منصب نائب وزير الأشـغال العامـة وفي أثناء توليه هذا المنصب مسح أرض الدولـة وأدخل إصلاحات كثيرة على الشـأن الزراعي. ثم عين وزيرا للجرائم فانقطع دابر الجريمة. وتقول سـجلات وزارة

(١)المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

(٢) كريل ه. ج، الفكر الصيني من كونفوشيوس إلى ماوتسي تونج، ، ص ٦٣.

(٣) العريبي محمد، موسوعة الأديان السماوية والوضعية-الديانات الوضعية الحية في الشرقين الأدنى والأقصى، ص٢٤١.

(٤) كولر جون، الفكر الشرقي القديم، تر: كامل يوسف حسين، مراجعة: إمام عبد الفتاح إمام، ص ٣٣٣.

الجرائم عن الفترة التي تولى فيها كونفوشيوس شؤونها: «لقد استحت الخيانة واستحي الفساد أن يطلا برأسيهما واختفيا، وأصبح الوفاء والأخلاق شيمة الرجال، كما أصبح العفاف ودماثة الأخلاق شيمة النساء. وجاء الأجانب زرافات من الولايات الأخرى، وأصبح كونفوشيوس معبود.»(١)

## الموقف من الميتافيزيقا

طغت على فلسفة الكونفوشيوسة البعد العملي والواقعي لذلك كان اهتمامه محدود بالأمور الغيبية، ففي مجال الميتافيزيقا (الماوراء)، لم يكن كونفوشيوس يؤمن بوجود كائنات خارقة تهيمن على الحياة الإنسانية، ولاسيما الأشباح والأرواح، مما كان سائدا في زمنه. وكان يرى في وجهة نظر وسطية أنه يكفي أن نظهر لها الاحترام بعيدا عنها. وفي سؤال وجه إليه عن إمكانية وجود (آلهة) أرواح، أجاب كونفوشيوس ب(نعم ولا)، وقال للسائل: إنك عندما تحس بوجود (آلهة) وأنت تقدم لها قرابين فهي موجودة. ولكن ماذا لو لم تكن تحس بوجودها؟ وهو في جوابه يؤكد وجهة النظر الشخصية، ولا يعممها كقانون اجتماعي، محل التطبيق في الحياة الاجتماعية. ولما سأله تلميذه (جي لو) عن خدمة أرواح الموتى، أجابه كونفوشيوس: «إذا لم تقدر على خدمة البشر، فكيف تخدم الأرواح؟».(٢)

إن رفض كونفوشيوس للميتافيزيقا التي أسست لثقافة شعبية أهملت الاشتغال على الإنسان في حد ذاته واهتمت بشؤون غير ملابسة للحياة. إن كونفوشيوس لم يكن تحت ضغوطات شعبية إيمانية ليقوى على رفض الميتافيزيقا(الماوراء)، لكنه لم يكن يقتنع بها. وكان جل همه ينصب على النظر الواقعي للحياة، ويتجاوز الماوراء. يقرر كونفوشيوس في البحث الفلسفي أنه يجب على النوابغ من البشر احترام ثلاثة أمور: إرادة السماء، وعظام الناس، وتعاليم الحكماء، وقال: إن هذا يتطلب وقتا ليفهمه الناس. و إن المرء لا يفهم إرادة السماء، إلا عن طريق التجربة بعد الخمسين. وفي حقيقة الأمر فإن كونفوشيوس رفض الميتافيزيقا الشعبية، ليحل محلها تصورا مطلقا في مجال الأخلاق والسياسية، يوازي في مكانته الآلهة

(١) العريبي محمد، موسوعة الأديان السماوية والوضعية-الديانات الوضعية الحية في الشرقين الأدنى والأقصى، ص ٢٢٧.

(٢) محمد حسن، تيارات الفلسفة الشرقية، ص، ص، ٦٥، ٦٦.

في نفوس الصفوة من الناس، وهذا ما ستؤكده طروحاته الفلسفية نظرية الرجل الأعلى والحاكم المثالي.[١]

طغت على الفلسفة الكونفوشيوسية النزعة العقلية، وهذا ما دفع كونفوشيوس إلى الأخلاقيات عن الماورائيات (علم ما بعد الطبيعة أو الميتافيزيقا) فصلا تاما. وحول هذه الحقيقة يقول ماكس ويبر (Max-Weber): «فيما يفهم عن غياب كافة الميتافيزيقيات وكل بقايا الملاذ الديني تقريبا، كانت الكونفوشيسة نزعة عقلية إلى حد بعيد حتى إنها تقف عند الحد الأقصى لما يمكن أن يدعوه الفرد الأخلاق الدينية.»[٢] وقد عرف عن كونفوشيوس أنه يتجنب الخوض في المسائل الماورائية. وتعبر الحوارات الواردة في المقتطفات الأدبية عن الموقف اللاإرادي الذي وقفه من هذه المسائل. ويخبر تلاميذه بأن «الموضوعات التي لم يكن المعلم يخوض فيها هي الأشياء الغريبة غير المألوفة، وأعمال القوة، والكائنات الروحانية.»[٣] إلى أنه اهتم بفكرة فلسفية عميقة لها علاقة بالميتافيزيقا، حيث يبدو أن كونفوشيوس اهتم بمسألة واحدة من مسائل ما بعد الطبيعة وهي مسألة الوحدة والتناغم بين الموجودات. إذ يصرح بأن جوهر الفلسفة يكمن في «البحث عن الوحدة الشاملة».[٤]

## الموسيقى عند كونفوشيوس

يظهر تميز كونفوشيوس وإبداع بشكل جلي في رؤيته الفلسفية للموسيقى وإمكاناتها التربوية وكان فوق كونفوشيوس شيء على إيمان كبير بفاعلية وتأثير الموسيقى في الصقل الأخير لشخصية الإنسان.[٥] وقد صرح في أكثر من موضع عن دور الموسيقى في إصلاح الفرد والمجتمع «إذا أتقن الإنسان الموسيقى، وقوم عقله وقلبه بمقتضاها وعلى هديها، تطهر قلبه وصار قلبا طبيعيا سلميا رقيقا، عامرا بالإخلاص والوفاء، يغمره السرور والبهجة. وخير

(١) المرجع نفسه، ص ٦٦.
(٢) العريبي محمد، موسوعة الأديان السماوية والوضعية-الديانات الوضعية الحية في الشرقين الأدنى والأقصى، ص ٢٣٠.
(٣) المرجع نفسه، ص ٢٣١.
(٤) المرجع نفسه، ـ الصفحة نفسها.
(٥) توملين أ. و. ف، فلاسفة الشرق، تر: عبد الحميد سليم، دار المعارف، القاهرة، مصر، ط٢، (د. ت)، ص٢٨٧.

السوائل لإصلاح الأخلاق والعادات، أن توجه العناية إلى الموسيقى التي تعزف في البلاد»[١]. «فالخير شديد الصلة بالموسيقى، والاستقامة تلازم الأخلاق الطيبة على الدوام»[٢].

دعى كونفوشيوس إلى الاهتمام بالتربية الموسيقية بين أبناء الشعب، وبالنظر إلى أهمية الموسيقى ودورها إلهام في المجتمع، فقد أوجب كونفوشيوس تعليم الموسيقى للناس أجمعين، سواء في ذلك أصحاب المواهب العليا أو أصحاب المواهب المتوسطة.[٣] فالموسيقى تلعب دورًا في نشر الفضائل والقضاء على الرذائل، ومما يكشف عن أصالة فكر كونفوشيوس هو توظيفه الموسيقى خاصة، والفنون بصفة عامة، مثل الشعر والغناء لخدمة المجتمع وعلاج أمراضه. فالموسيقى عنده ليست مجرد «ترف عقلي» أو مجرد لذة فردية أو استمتاع ذاتي، بل تستهدف القضاء على الأمراض الاجتماعية بإشاعة الوئام محل الخصام، والمحبة والرحمة والعدل محل الكراهية والقسوة والظلم، وبهذا سبق أرسطو فيما قام به من بعد ذلك في العصر القديم، وابن سينا في العصر الوسيط، من حيث استخدام الموسيقى في التطهير النفسي، وعلاج الأمراض الشاذة.[٤] ترتبط القيم فيما بينها عند كونفوشيوس إذ هناك علاقة بين الخير والجمال والحق، ولما كان الجمال مرتبطا، عنده بالخير، فإن الموسيقى بمساعدتها الأفراد على حب الجمال وتذوقه، فإنها تساعدهم، في نفس الوقت، على حب الخير وإتيانه، وعلى التفرقة بين الخير والشر.[٥]

يعتبر الارتباط بالموسيقى عند كونفوشيوس ميزة للإنسان الأعلى، والحكيم أو الرجل النبيل، هو الذي يمتاز عن غيره في حسن اختيار الموسيقى المناسبة التي ترجع الأفراد إلى طبيعتهم الإنسانية الأولى الخيرة التي تتميز بالوئام والوفاق.[٦]

لازالت شهرة كونفوشيوس مرتبطة بنظرته للموسيقى وقد نافس الكثير من المنظرين للموسيقى، وأما عن موقف « كونفوشيوس» من الموسيقى فيكاد يشبه موقف «شوبنهاور» منها: لم يكن يؤمن فقط بأنها تصور تناسق الكون بل ترمز إلى الوئام الذي، لو وهب للحكام

(١) صلاح بسيوني رسلان، كونفوشيوس رائد الفكر الإنساني، ص ١٥٧.
(٢) المرجع نفسه، الصفحة نفسها.
(٣) المرجع السابق، ص ١٥٨.
(٤) المرجع نفسه، ص، ص، ١٥٨، ١٥٩.
(٥) المرجع نفسه، ص، ص، ١٥٧، ١٥٨.
(٦)المرجع نفسه، ص ١٦٠.

المتنورين لعم الدولة بأسرها. ولاشك أنه ربما أصابته الحيرة من مناهجها التعليمية الحديثة، التي غالبا ما ينظر فيها إلى الموسيقى على أنها إنجاز «فائض» أو إضافي، على أحسن تقدير. وقد يكون إهمال «فلسفة» الموسيقى أوضح دليل على شعور الإنسان بالعزلة في الكون. (١)

## خاتمة

لقد قدم كونفوشيوس للبشرية جمعاء فكرا مبدعا لم تستطع الأزمنة أن تلغيه أو تقصيه، وهذا لأنه اهتم بالإنسان وعمل على حفظ كرامته بطرح فلسفة عملية بعيدة عن التخييل بل تعالج مختلف القضايا الواقعية. ولذلك ركز على تنمية الإمكانات الذاتية لكل إنسان، فأبدع في مختلف طروحاته الفكرية وسبق الكثير من النظريات التي عرفتها الفلسفة الإغريقية رغم أن العقل الغربي الحديث والمعاصر أعلى من شأن الفلسفة الإغريقية على حساب الفكر الذي سبقها.

(١) توملين أ. و. ف، فلاسفة الشرق، تر: عبد الحميد سليم، ص٢٨٨.

## قائمة المصادر والمراجع


١- بورن جين هوب، فإن لون، بوذا، تر: إمام عبد الفتاح إمام، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، مصر، (د. ط)، ٢٠٠١.

٢- توملين أ. و. ف، فلاسفة الشرق، تر: عبد الحميد سليم، دار المعارف، القاهرة، مصر، ط٢، (د. ت).

٣- رسلان صلاح بسيوني، كونفوشيوس رائد الفكر الإنساني، منتدى مكتبة الإسكندرية، الإسكندرية، مصر، (د. ط)، (د. ت).

٤- السقاف أبكار، نحو آفاق أوسع- المراحل التطورية للإنسان- الدين في الهند والصين و إيران، مؤسسة الانتشار العربي، بيروت، لبنان، ط١، ٢٠٠٤.

٥- عبد الحي عمر، الفلسفة والفكر السياسي في الصين القديمة، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ط١، ١٩٩٩.

٦- العريبي محمد، موسوعة الأديان السماوية والوضعية-الديانات الوضعية الحية في الشرقين الأدنى والأقصى، دار الفكر اللبناني، بيروت، لبنان، ط١، ١٩٩٥.

٧- كريل هـ. ج، الكر الصيني من كونفوشيوس إلى ماوتسي تونج، تر: عبد الحميد سليم، الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر، (د. ط)، ١٩٧١.

٨- كولر جون، الفكر الشرقي القديم، تر: كامل يوسف حسين، مراجعة: إمام عبد الفتاح إمام، عالم المعرفة، الكويت، (د. ط)، ١٩٩٥.

٩- محمد حسن، تيارات الفلسفة الشرقية، دار علاء الدين، دمشق، سوريا، (د. ط)، ٢٠٠٨.

١٠- المرزوقي جمال، الفكر الشرقي القديم وبدايات التأمل الفلسفي، دار الآفاق العربية، القاهرة، مصر، ط١، ٢٠٠١.

١١- النشار مصطفى، المصادر الشرقية للفلسفة اليونانية، دار قباء للطباعة والنشر، القاهرة، مصر، ط ١، ١٩٩٧.